اللا مفكر فيه في تاريخ النساء

THE UNTHINKABLE IN WOMEN'S HISTORY
L'IMPENSABLE DANS L'HISTOIRE DES FEMMES

عبد القادر حميدة [1] *

تاريخ الإرسال: 2019/07/29 تاريخ القبول: 2021/01/07 تاريخ النشر: 2021/03/15

ملخص: تعتبر كتابة تاريخ مكان ما، أو حدث ما، مهمة محفوفة بالمخاطر، التي قد لا يعيها المؤرخ لحظتها، لكن ما إن يمر زمن ما، حتى تنكشف له بعض المحمولات الرمزية المضمرة، ويتبين له الكثير من الثقل الأيديولوجي الذي تكون قد اختزنته الكلمات، والذي سيرمي بثقله ذاك حتما على الحاضر، من هنا تولد لدينا وعي بوجود "عنف رمزي Violence Symbolique" في عملية كتابة التاريخ أي نقل الحكاية من الشفوي والحد من حريتها على الورق، وكل كتابة هي كذلك تغدو نسخا مغلقة على حد تعبير أركون. لكن آمال شعواطي وهي ترمي بأسئلتها واستفهاماتها في منطقة ما يمكن تسميته بـ"المسكوت عنه" بالتعبير السائد أو اللا مفكر فيه بتعبير المفكر الجزائري محمد أركون، بما هي أسئلة شرعية ومنطقية، تشكل في ناحية من نواحيها أسئلة جيل الاستقلال الذي يأمل في ترميم ذاكرته، حتى تقف مقومات هويته على أرض صلبة, ومن هنا، من التاريخ المنسي لنساء جزائريات، ستنطلق مساءلتنا للعمل البحثي الذي قامت به "آمال شعواطي"، وسيكون أيضا تبيانا لإسهامها في التعريف بهن، من خلال رحلة بحث مضن، ورحلة استعادة لأصوات مكتومة لنسوة جزائريات ظللن يصرخن في ليل الغربة بصمت.

الكلمات المفتاحية: تاريخ النساء؛ اللا مفكر فيه؛ قصر أمبواز؛ الأمير عبدالقادر؛ الجزائريات.

Abstract : To write the history of a place or an event is a risky task, from which we can perceive its symbolic and ideological ports, one can also perceive the presence of a "symbolic violence" in the process of writing and the transmission Of the history. But when Amel Chouati, asking questions in a field or reigning the "unsaid" concept of the Algerian thinker Mohammed Arkoun, we said that she is asking the questions of the generation of independence who hopes to build an identity on solid foundations. It is in this vision that comes the forgotten story of Algerian women, which Amel remembers, so that we can hear the voice of women who still cry in silence.

Keywords: Women History; The unthinkable; Amboise Palace; Prince Abd El-Kader; The Algerian women

Résumé: Écrire l'histoire d'un lieu ou d'un événement est une tâche risquée, dont nous pouvons percevoir ses ports symboliques et idéologiques, on peut percevoir également la présence d'une "violence symbolique" dans le processus d'écriture et la transmission de l'histoire. Mais lorsque Amel Chouati, pose ses questions dans un domaine ou reigne le «non-dit» concept du penseur algérien Mohammed Arkoun, on dit qu'elle est entrain de poser les questions de la génération de

*المؤلف المراسل

[1]Abdelkader Homida, Ziane Achour University, Djelfa: Algeria, a.homida@univ-djelfa.dz

l'indépendance qui espère batir une identité sur des bases solides. C'est dans cette vision que vient cette histoire oubliée des femmes algériennes, dont Amel leurs rende la mémoire, pour qu'on puisse entendre la voix des femmes qui pleurent encore en silence.
Mots clés: Histoire des femmes; l'impensable; Châteaux d'Amboise; L'émir Abd El-kader; Les Algériennes.

مقدمة:

"تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم" (الفاخوري، ب س ط، 712) عاودتنا ذكرى عبارة "مي زيادة"، التي كتبها الباحث طفلا يافعا، وعمره حينها لم يتجاوز الثالثة عشر، في موضوعه الإنشائي حول المرأة، عادت إلينا العبارة، والتي ما نزال نحفظها عن ظهر قلب، ونحن نقرأ كتاب "آمال شعواطي" Amel Chaouati الموسوم بـ"جزائريات قصر أمبواز حاشية الأمير عبدالقادر" Les Algériennes du château d'Amboise Suite de l'Emir Abdelkader والصادر عن دار النشر "لا شومينونت" La cheminante عام 2013، والذي كتبته صاحبته باللغة الفرنسية، وما يزال لم يترجم بعد إلى اللغة العربية، عاودتنا العبارة، وبدا لنا منها أولا أن "للمرأة تاريخ" وهو الأمر الذي تفطنت له الراحلة "مي زيادة" بشكل من الأشكال قبل "ميشال بيرو" Michelle Perrot، وهي الداعية حينها رفقة "قاسم أمين" و"هدى الشعراوي" و"الطاهر الحداد" و"باحثة البادية" إلى ضرورة نهوض المرأة، واستفاقتها، ودخولها إلى صفحات التاريخ التي ظلت حقبا طويلة، صفحات مهملة ومهمشة.

عاودت العبارة الباحث لتؤكد له من جهة أخرى ما كتبته الباحثة "سناء الخولي" حين جزمت نقلا عن قول تيرمان Terman أن "تكريس النساء لطاقتهن في الأعمال المنزلية، يحرم الفنون والعلوم من جانب كبير من العبقرية الإنسانية" (الخولي، ب س ط، 16)، وقد عاودته العبارة مرة ثالثة لتبين له الأهمية السوسيو- أنثربولوجية للعمل الذي أنجزته آمال شعواطي، وبدا للباحث واضحا أنه لا يجب أن نترك مثل هذه الأعمال عرضة للإهمال والتناسي، بل يجب وضعها في صلب السؤال الأكاديمي، حتى لا يصيبها من التهميش ما أصاب أعمالا أخرى ذات أهمية كبرى، لعلنا هنا نلمح إلى أعمال المفكر الجزائري مصطفى الأشرف، التي بقيت زمنا طويلا بعيدة عن الدرس الأكاديمي، ولو أتيحت لنا فرصة أكاديمية ما، فإننا لن نتوانى عن دراستها وتمحيصها، كما نلمح إلى الروائية لوسيان لوفابر، من يذكر لوسيان لوفابر اليوم؟ أو يتذكر جهدها السوسيو-تأريخي لفضاء القصبة، من اهتم بترجمة أعمالها إلى العربية؟ من اهتم بها أكاديميا؟ ونخص بالذكر تخصصات الأدب، السوسيولوجيا والتاريخ؟ إن فهم الواقع ومختلف نواحي الظاهرة السوسيولوجية الذي تحاول السوسيولوجيا الجد فيه،

لا يعفيها من مساءلة الظروف السوسيو-ثقافية لتهميش هؤلاء المثقفين، لماذا؟ وكيف؟، الحفر في الآليات وشرحها بكل جرأة هي مهمة المثقف السوسيولوجي ولا نقول العضوي بتعبير غرامشي، ولا الملتزم بتعبير سارتر، ولا التأسيساتي بتعبير أحمد شراك، بل نقول المثقف المهموم، المتصل بقضايا أمته، تاريخها وأدبها، بمعنى من المعاني، المهموم بمساءلة هويتها ومراكمة المعارف حتى يتجلى صرحها؟ ونعتقد أن مهمة المثقف والباحث الأكاديمي الجاد اليوم لا تتلخص في الانسياق وراء اللحظة، بل في السباحة عكس تيار اللحظة، فالضد يدرك بضده، وطرح الأسئلة، المزعجة، المربكة، المخاتلة هي المهمة الأساسية اليوم لمثل هذا المثقف.

ومنه فإن إسهام المرأة الجزائرية جدير بالعناية، وبأن يكون موضع استفهام، وموضوع درس، فلا يليق بالدارس التغاضي عن دورها في شتى المجالات، وفي هذا السياق يأتي عمل آمال شعواطي لينخرط ضمن هذا الإطار، لأنها المثقف الذي انتبه، الذي سكنته الأسئلة، لأنها بحبها لمعرفة الحقيقة، راحت تراكم الأسئلة، فهي تضعنا وجها لوجه مع ثنائية المثقف والوعي، لنتعلم من خلال رحلتها البحثية هذه أنه لا يليق بالمثقف الانسياق وراء تيار الوعي الزائف الهادر كالموج، بل عليه أن يقف لدى محطات بعينها ليطرح الأسئلة، الأسئلة التي تشكل المنعرج نحو الوعي الحقيقي، إنها محاولة لخلخلة السائد، وذلك برمي حجر في البحيرة الراكدة، فأحيانا يتبدى لك كتابها التاريخي "جزائريات قصر أمبواز حاشية الأمير عبدالقادر" كمحاولة لترميم الذاكرة، وأحيانا تفكيكا لمفهوم سائد ومساءلته، وذلك بنقله من منطقة اللاوعي إلى الوعي، وأحيانا يظهر لك على أنه عملية هدم، لعل كتاب هذه المرأة الجزائرية قد تضمن التفكيك الذي هو عمل الباحث، والهدم والتفجير الذي هو عمل المبدع في آن واحد.

ذلك أن الملايين زاروا "قصر أمبواز"، من منهم توقف لحظة عند تلك المقبرة لينصت إلى همس ساكنيها من أطفال وساكنتها من نساء؟!، من منهم انتبه إلى هذا الهامش، وانصرف بمخيلته عن هيمنة حضور شخص الأمير الذي يكاد يغطي كل شيء عداه في المكان والزمان؟!، من منهم تمكن من أن يوجه سهام أسئلته للمؤرخين محاولا وضع أعمالهم محل استفهام؟! بالتأكيد نحن نذكر عمل "ابن خلدون" في المقدمة حين قاده استفهامه على هامش التاريخ إلى زرع البذور الأولى لعلم سيصبح من أكثر العلوم إزعاجا وانتشارا في العالم، وهو السوسيولوجيا، أليست آمال بترسانة أسئلتها التي انهمرت عليها، وهي تحدق بدهشة في قبور تلك الحديقة "حديقة الشرق" تعيد إنتاج منهج "ابن خلدون" وسبيله؟!.

ومثل آمال شعواطي تماما، كان يجب أن نقف عند الاستفهامات التي سكنتنا قبل هذه القراءة وبعدها، وكانت القراءة هي العنصر المفجر لها، ألا يجب على السوسيولوجيا أن تخوض هذه الغمار محاولة إيجاد إجابات ولو مؤقتة لكل هذا السيل من الأسئلة، وبعدها كان يجب أن نتساءل عن العدة المنهجية والابستمولوجية الواجبة للقيام بهذه المهمة.

1-"اللا مفكر فيه" مفهوما إجرائيا:

إذا كان المفكر الإسلامي الجزائري محمد أركون قد انتبه –مستعيرا مفهومي اللا مفكر فيه والمستحيل التفكير فيه من ميشال فوكو مباشرة- إلى تلك الفراغات البكر في المنظومة الفكرية الإسلامية، وحاول تسليط الضوء عنها بصفتها فراغات مسكوت عنها وغير منتبه لها، محاولا بذلك تطبيق هذا المفهوم الأساسي في "اللا مفكر فيه في الفكر الإسلامي"، قاصدا بذلك "كل ما حذفه الفكر الإسلامي من دائرة اهتماماته منذ القرن الثالث عشر على الأقل، بحيث أصبحت الأشياء التي يمكن التفكير فيها أقل بكثير من الأشياء التي يستحيل التفكير فيها. وهذا بحد ذاته دليل على استقرار هذا الفكر وانغلاقه، ومن هنا جاءت ضرورة النقد" (شاوي، 2015).

لكن هذه المساحة تتسع إذا ما تعلق الأمر بتاريخ النساء، ويكون اتساعها طرديا مع اتساع دائرة الحضر والمنع، فكلما كبرت مساحة المنع والـ"طابو" Tabou كلما اتسعت مساحة اللا مفكر فيه، لا باتساع مساحة المستحيل التفكير فيه كما ينحو المفهوم حسب محمد أركون، وإنما باتساع مساحة الممنوع التفكير فيه، كما نريد من خلال قراءتنا هذه لكتاب آمال شعواطي.

إن الباحثة بعملها هذا تنخرط حسب رأينا في المشروع الكبير للباحثة "آسيا جبار" الذي مثله مثل مشروع "محمد أركون" يهدف أساسا "إلى إدخال نوع من البحث الحي الذي يفكر ويتأمل بمشاكل الأمس واليوم" (أركون، 1996، 11)، وقد يتساءل البعض معترضين على نسبة كلمة مشروع لأعمال آسيا جبار، وفي رأيي أنه يصب في اتجاه مقالنا اليوم، حيث يمكن تسمية مشروع آسيا جبار بـ"اللا مفكر فيه في تاريخ النساء الجزائريات"، صحيح أن الراحلة الكبيرة لم تعنى بتأطير مشروعها بنحت أسسه المفاهيمية، ولكنها انخرطت في تطبيقه، وشكل تاريخ المرأة المنسية نقطة اهتمامها المركزية، في رواياتها وكتاباتها المختلفة، ألا تراها في "بعيدا عن المدينة" كيف تحاول إعطاء الصوت وتسليط الضوء على نساء، لم نحاول ولم نفكر يوما في سماع أصواتهن وسط طغيان الصوت الذكوري؟! وطبعا إننا لسنا بحاجة للتدليل أكثر على ذلك "فعتبات" رواياتها تفصح عن نفسها بداية من "القبرات الساذجة" Les Alouettes naïves(1967) ومرورا بـ" نساء الجزائر في مخدعهن" Femmes d'Alger dans leur appartement (1980) ثم "هذه الأصوات التي تسيجني" Ces voix qui m'assiegent (1999) وانتهاء بـ"ممنوعة في بيت والدي" Nulle part dans la maison de mon père (2007)*.

وبرأينا أن مشروعها كان يهدف أساسا إلى خلخلة السائد، وإلى التفكير في مناطق "مسكوت عنها" حتى لا نذهب بعيدا فنقول "ممنوعة"، والمنع هنا بمعنى أن آليات إعادة إنتاج الرواية الرسمية لتاريخ المرأة لم تول اهتماما إلى المرأة،

* ترجمة عناوين روايات الراحلة "آسيا جبار" هي جهد شخصي، لا ألزم به أحدا، لكنني أتبناه في مقابل بعض الترجمات المتداولة.

وظلت أصوات النساء مجرد همس، وظل الحفر في تاريخ المرأة منطقة معزولة، أي بين بين، لا ممنوعا ولا مسموحا به، بل هو "لا مفكر فيه".

2- أسئلة المنهج في كتاب آمال شعواطي:

إن مساءلة "المسكوت عنه" و"اللامفكر فيه" في هذا العمل البحثي الأنثربولوجي التاريخي لآمال شعواطي، تبدأ من رسم معالم الفضاء/المكان الذي هو "قصر أمبواز"، ثم تتبعها عملية تفكيك العلاقات لاستخراج الظواهر المجتمعية الكامنة، بواسطة حفر أركيولوجي انطلاقا من أن هذا العمل يتعرض أساسا إلى محاولة ترميم وفهم الأحداث التي عرفتها تلك اللحظة التاريخية الهامة، وهو بكشفه الغطاء عن ذلك، سيظهر حتما علاقات وظواهر اجتماعية كان يعج بها ذلك الفضاء. وعملية الإظهار هذه إما أن تكون بإعادة التفكير في اللا مفكر فيه من إشكالات تلك اللحظة التاريخية، أو فضح المسكوت عنه بإشارات رمزية محاولة بذلك إبراز التناقض/ المفارقة Le paradoxe للعيان.

ما الذي يدفع المرأة الجزائرية إلى "فك التقديس" désenchantement عن مسلمات الوعي الجمعي ومساءلتها لإعادة ترميم الذاكرة؟ وما الأبعاد التي ارتكزت عليها هذه الرحلة البحثية السوسيو- أنثربولوجية لآمال شعواطي؟ وفي رأينا أن البعد الأول هو إعادة التفكير في اللا مفكر فيه في تلك اللحظة التاريخية، الذي يتضمن عدة مؤشرات منها: قضية استسلام الأمير التي تختلف تفاصيلها الرسمية المدرسية عن التفاصيل التي سردتها "آمال" قائلة: "قادتني قراءة لكتاب: (عبد القادر الشهم) إلى قصر أمبواز، هذا الكتيب الممهور بالرسومات كشف جهلي بتاريخ عبد القادر بن محي الدين، وقد كنت أحسب قبلا أنني على دراية به، إذ أن تاريخه متواجد بانتظام في البرامج المدرسية وفي وسائل الإعلام. حدثتني هذه القراءة عن حقائق تاريخية لم تذكر مطلقا في الجزائر. حيث أكتشف لأول مرة أن مؤسس الدولة الجزائرية استسلم للفرنسيين. كلمة استسلام لم تذكر أبدا، وأكتشف في نفس الوقت أنه سجن في فرنسا لمدة خمس سنوات، وأنه كان مصحوبا بنساء وأطفال." (Chaouati, 2013, 18). لتؤكد بعدها وبعد عدة محطات أن "الرواية الرسمية لتاريخ هذه الشخصية تمنع أي تفكير معاكس، تاركة ضمنا أن أية رواية أخرى لا يمكن أن يسمح بها دون أن تتعرض لخطر التهميش" (Chaouati, 2013, 40).

لقد رسمت "آمال شعواطي" تلك الليلة الشتوية التي استسلم فيها الأمير عبد القادر بدقة، واقتربت من حالته النفسية بل والجسدية، فقد كان يعرج مصابا في رجله، وكانت "ليلة شتوية حالكة الظلمة ألقت عليهم سدولها، بلا حتى نقطة ضوء في السماء، وحدها الأمطار الطوفانية تنسكب على الأرض، ظل عبد القادر بن محي الدين يرقب طويلا المشهد المؤلم الذي يحيط به، كان أتباعه من العمداء والعساكر في تناقص مستمر، ولم يعد بالإمكان حتى حساب الموتى، ولا تعزية الأرامل والأيتام."(Chaouati, 2013, 45). والمؤشر الثاني هو وجود العبيد وذلك يدخل في صلب المسكوت عنه، لأنه

يقربنا أكثر من حقيقة البنية الاجتماعية وطبيعة العلاقات في ذلك الزمن، والمؤشر الثالث هو قضية الحبس في "قصر أمبواز"، ومدة هذا الحبس، التي تقع ضمن دائرة "اللا مفكر فيه" في تاريخ الأمير، وكذلك يقع الاستفهام حول مصير من كانوا معه. إن كتابة تلك اللحظة التاريخية تتضمن عنفا رمزيا.

والبعد الثاني هو "فك التقديس" لمساءلة بعض مسلمات الوعي الجمعي، الذي يمكن إدخاله هنا في إطار الوعي المزيف، هذا البعد يتضمن مؤشرا أساسيا سعت إليه "آمال" عبر لغة السرد نفسها، وهي "فك التقديس" عن الصورة النمطية للأمير، لقد شرعت في عملية جريئة هي تفكيك التمثل التقليدي لصورة الأمير، ومحاولة بناء صورة أكثر دقة بناء على الوقائع الجديدة، متخذة من الحبس في أمبواز ومدتها مكانا وفضاء لمساءلة تلك الصورة النمطية التي ترسبت في المخيال الجمعي، لقد كانت غالبا ما تذكر اسم "عبدالقادر بن محي الدين" دون ذكر صفة "الأمير"، وفي ظننا أن هذا كان أمرا مقصودا منها، حاولت من خلاله أن تخطو الخطوة الأولى في مسار فك التقديس، تليها خطوات أخرى كذكر تعدد زوجاته، وفي صورتنا النمطية أنه لم تكن للأمير إلا زوجة واحدة ظل وفيا لها، تقول امال "في الوقت الحاضر، أتساءل عن ما وراء الأسطورة الجزائرية المعاصرة، لماذا نحاول بكل الوسائل أن نجعل من عبد القادر رجلا غير متعدد الزوجات، لدرجة تصل إلى تدنيس قبور، لدرجة تحريف تاريخه ومحو تاريخ أبنائه، مع أن قانون الأسرة الجزائري ما يزال يسمح بتعدد الزوجات؟." (Chaouati, 2013, 98) وكذلك وجود الخدم والجواري فها هي "الصغيرة زينب ابنة مبروكة إحدى خادمات الأمير تموت في الطريق يوم 30 أفريل، كان عمرها تسعة أشهر." (Chaouati, 2013, 95).

ولقد انطلقت "آمال" في نهجها هذا من خلال سرد التمثل الطفولي بصورة الأمير في بيت جدها من خلال اللوحة السيراميك التي كانت على الجدار، أما المؤشر الثاني فيتمثل في فك التقديس عن الصورة النمطية لعائلة الأمير عبدالقادر ومحاولة رسم صورة مقاربة لواقعها وأنها عائلة تعاني مما قد تعاني منه بقية الأسر من نزاعات وخلافات في المصاهرة والنسب وحنان الأب وما إليها. " ذات صباح رأينا واحدة منا تدخل مهرولة إلى مكتب المدير. والتصقت بذراعه، ملتمسة منه عدم إرجاعها إلى سيدها الذي لم يكن شخصا آخر غير الأخ الأصغر لعبد القادر بن محي الدين. لقد عاملها معاملة سيئة في الوقت الذي كانت تعاني من المرض. بينما كان سيدها يعتقد أنها كانت تدعي ذلك." (Chaouati, 2013, 121-122).

3- ماذا عن تاريخ النساء؟:

يدخل تاريخ النساء أحيانا في حيز "المسكوت عنه"، أو "اللامفكر فيه"، أو المتغاضى عنه، كون كاتب هذا التاريخ وراويه هو بالأساس "المذكر"، بل حتى في فضاءات لم يكن واجبا السكوت عنه، مثل فضاء "المناقب والكرامات" مثلا، وهو الفضاء الذي كان من المفترض أن يتساوى فيه الرجال والنساء، بما هو فضاء صوفي متعلق بالعلاقة بالله أساسا، نجد أن المؤرخين له ظلوا رجالا يكتبون عن رجال، وفق هيمنة ذكورية Domination Masculine جلية وواضحة للعيان، بل

حتى "بعض كبار مدوني سير وكرامات المتصوفة الذين تجاوزوا النظرة السلبية للمرأة معترفين بولايتها في متونهم المناقبية، ظلت نظرتهم ورؤيتهم محكومة بخلفيات ذكورية صارخة.." (بوبريك، 2010، 18).

ومن هنا جاءت ضرورة إنشاء تخصص في التاريخ يعنى بالنساء، ويسمى بـ"بتاريخ النساء" وكان منشؤه في فرنسا، على إثر المحاضرة التي ألقتها "ميشال بيرو" في جامعة الصوربون في خريف العام 1973، محاضرة وجهت جل استفهاماتها وجهة جديدة، نحو "المهمش"، نحو "المقصي"، نحو "المسكوت عنه"، وبصورة أدق معرفيا ومنهجيا نحو"اللا مفكر فيه"، ومن منطلق أن لكل نص معنى حرفي ظاهري وآخر مجازي باطني، أو حسب المقاربة البنيوية "بنية سطحية وبنية عميقة." فإن "كل مجاز هو عبور نحو فضاء جديد تنكسر معه قوالب المعرفة وحتميات الواقع، على نحو يغني إمكانات الوجود ويثري عالم الفهم ومفردات اللغة." (حرب، 2005، 15-16)، فإن تلك المحاضرة التأسيساتية (نسبة للمثقف التأسيساتي بتعبير الدكتور المغربي أحمد شراك) شكلت منعرجا في الرؤية لتاريخ المرأة، وكانت البداية لسلسلة من الأسئلة المنتجة –بتعبير بيير بورديو إنتاج السؤال–، ولعل "آمال شعواطي" بمحاولتها إعطاء أصوات لمن صودرت أصواتهن في فضاء ذلك القصر/المعتقل، الفضاء المغلق ظاهريا، المنفتح في حقيقته على منظومة قيم قادمة من الشرق –بما هو عالم إسلامي– تشكل المركزية الذكورية أحد تجلياتها، وبالتالي فإنه من غير الممكن أن تجد هذه الأصوات سبيلا لتحررها وهي حبيسة "السجنين" والذي تصر الكاتبة على تسميته كل مرة بـ"Double enfermement".

4– وضعية النساء في كتاب آمال شعواطي:

لعل كتابة تاريخ مكان ما، أو حدث ما، ومحاولة توثيق حادثة تاريخية ما، مهمة محفوفة بالمخاطر، قد لا ينتبه لها المؤرخ لحظاتها، لكنه بعد مرور الزمن يمكننا إدراك المحمولات الرمزية، والثقل الأيديولوجي الذي اختزنته الكلمات لحظتها، والذي سيرمي بثقله ذاك حتما على الحاضر، من هنا تولد لدي وعي بوجود "عنف رمزي" Violence Symbolique في عملية كتابة التاريخ أي نقل الحكاية من الشفوي والحد من حريتها على الورق، وكل كتابة هي كذلك تغدو نسخا مغلقة على حد تعبير أركون.

لقد رمت آمال شعواطي بأسئلتها واستفهاماتها في منطقة ما يمكن تسميته "المسكوت عنه" بتعبير المفكر الجزائري محمد أركون، أسئلة جيل الاستقلال الذين يأملون في ترميم ذاكرتهم حتى تقف هويتهم على أرض صلبة، تشبه آمال نفسها بأميرة بورن التي "تلمس ما لا يلمس، وتفتح ما لا يفتح، وتتحدث على حبل يابس، وسط صمت شديد البرودة" (Cocteau, 1923, 14).

إن "المسكوت عنه" هو أحد تجليات "العنف الرمزي" كما وصفه بيير بورديو (1930-2002) Pierre Bourdieu صاحب هذا المصطلح، لكن الحيرة الأولى التي تملكتها بعد أن قررت الانخراط في الكتابة هو حيرة جنس الكتابة، هل

تكتبها كرواية أم كأطروحة بحث؟ هنا برزت بقوة كلمات انجبورغ باخمان Ingeborg Bachmann لأفسح لها طريقا نحو الرؤية الواضحة: "نحن نبحث دائما عن شرح أشياء تعود بعيدا إلى الوراء أشياء مفزعة، لكننا نتوه، لأنه يوجد بالصدفة أن الطريق الموصل تم وطؤه من طرف عدد كبير من الناس، وأن البعض قد قام إراديا بمحو الآثار، لأن كل واحد في شهادته يقدم نصف الحقيقة من أجل ضمان سلامته، وهكذا نحن نبحث باستمرار عن وسيلة تمهيد طريق من بين الحقائق المزيفة واللا توافقات، ولكننا لا نعثر على شيء، لأنه من أجل فهم الواقع الذي نتصدى له، ومن أجل معرفة حقيقة ما يجب فعله، لا بد من إلهام حقيقي ومفاجئ" (Bachmann, 2006, 36-37)، فمن أين سيتسلل لروح آمال هذا الإلهام الحقيقي والمفاجئ، ظني أن همسات النسوة القابعات هناك صفحة ممزقة من التاريخ، ولحظة مسكوتا عنها، شكلت الدهشة والحيرة، وكانت بمثابة المهماز لسيل سينهمر من الكلمات، حيرة أمال قادتها إلى الاندماج، وساقت روحها إلى الانسجام، فوخزت روح الإبداع فيها، هي المبدعة التي تسكنها الكتابة وإن ظلت تحوم حولها، كالفراشة تخشى الاحتراق من النور، لكن لحظة الوقوف أمام مقبرة نساء وأطفال كانت لحظتها التي لم تتوقعها أبدا، وهكذا انهمر سيلها.

كتبت المؤرخة "كريستال تارو" عن مجهود آمال البحثي، وذلك عندما شاركت آمال في ملتقى النوع والاستعمار بجامعة نيويورك في باريس تقول: في حدود معرفتي، الدراسة الوحيدة التي كتبت لحد الآن عن النساء "الأهليات" المنفيات هي دراسة آمال شعواطي والتي تدور حول: وضعية نساء وأطفال عائلة وجناح الأمير عبدالقادر خلال اعتقالهم بقصر أمبواز من 1848 إلى 1852، تعيد آمال شعواطي رسم الذي كانته هذه الإقامة بالنسبة لنساء بدويات ومسلمات من الغرب الجزائري قذف بهن في أرض اجنبية و"خائنة" ذات مناخ صعب، لا يخرجن، لا يتحدثن غير العربية، متعرضات لشروط اعتقال جد قاسية، هؤلاء النسوة طورن حالات أمراض مثل الاكتئاب أو الذبول وتوفين رفقة أطفالهن، القبور التي عددها 25 المتواجدة في قصر أمبواز، كما تشير له مجرد إشارة آمال شعواطي ما تزال هنا شاهدة على هذا التاريخ المؤلم" (Taraud, 2011, 165).

آمال لم يفاجئها تغييب هؤلاء النسوة هناك، وطمس تاريخهن ووجودهن، وتمزيق الصفحة الخاصة بهن، لأنها ظلت تعرف أنه إذا ما تم ذكرهن فإنهن غالبا ما يكن "متخيلات أكثر منهن موصوفات أو محكيات" (Perrot, 1998, III) وبالتالي فإن محاولة إعطائهن صوتا، لابد له أولا من قلب المعادلة، وذلك بجعل الهامشي مركزيا، والمركزي هامشي، وهذا ما يتجلى بوضوح في هذا الكتاب، إذ نجد في خلفية كتابة أمال للمسكوت عنه تاريخيا، حضورا قويا لمشروع الراحلة الكبيرة الروائية آسيا جبار، حيث ظل إسماع اصوات النساء المنسيات في التاريخ تيمة مفضلة وأساسية لديها، وحين نعرف أن آمال ظلت صديقة وفية لأسيا جبار، وهي رئيسة حلقة القراءة آسيا جبار والمؤسسة لها، نتأكد من هذا الحضور، فنجد مثلا في كتاب آمال حضورا مهموسا لفيلم "نوبة نساء شنوة" إنها تقنية في هدم التقليدي والسائد، لإعادة بناء العالم، فهي تحاول

أن تعطي صوتا للمرأة، كما فعلت في كثير من أعمالها الروائية خاصة في "بعيدا عن المدينة" ، ها هي آمال تستلهم فيلمها لتعطي الصورة الرئيسية للمؤنث وتترك المذكر خلف الستار، إن هذا التحييد هو الذي عمدت إليه آمال حين أعطت الصوت والحضور للنساء، لتلك النسوة المغيبات، تركت لهن فضاء الكتاب، وأخرت الأمير، مسلطة بذلك الضوء على المناطق المعتمة، رافعة صوت المقهورات، قالبة الوازين الذكورية في المجتمعات الباتريركية، هامسة في أذن المؤرخين: لقد كنتم تنظرون بعين واحدة.

لقد وضعت آمال شعواطي في بداية كتابها عبارة للأمير عبد القادر، كأنها إعلان على المكانة للمرأة في قلب الأمير، كأن الشاعر فيه هو قائلها، وهي كلماته الموجهة إلى السيد أوليفييه في طولون في ربيع الأول 1264، مارس 1848: "هم لا يفهمون أنني أعطيت كلمتي بعدم حمل السلاح أبدا ضد الفرنسيين، ومهما تمنيت ذلك، النساء سيقتلنني، هل تفهم، يقتلنني، لقد عانين كثيرا خلال كل سنوات الحرب من غياباتي الدائمة، وانظر إلى الذي ما زلت أحمله لهن، إنها اسوأ اللعنات تلك التي ترمي بكلكلها على عائلتي"(Chaouati, 2013, 09)

خاتمة:

لقد فتحت آمال شعواطي بكتابتها لكتاب "جزائريات قصر امبواز حاشية الأمير عبدالقادر" فضاء للبحث السوسيو-تاريخي والسوسيو-انثربولوجي، مستفزة الباحثين نحو استكمال عملية إنتاج الأسئلة، ومحاولة الانخراط في بحوث جادة لإيجاد بعض الأجوبة. أجوبة محتملة ومؤقتة تنفتح على فضاءات أرحب.

وفي النهاية أرى لزاما علي أن أذكر اقتباسا، اقتبسته أيضا الباحثة نفسها، موضحا أن كتابا كهذا حسب ميشيل فوكو Michel Foucault: "لا يكون في النهاية إلا الحضور القمعي لما لا يقوله، وهذا اللا مقول سيغدو عبارة عن تجويف يلغم من الداخل كل ما يقال" (Foucault, 1969, 39)، وهذا التلغيم سيغدو القناة التي تنفتح من خلالها وعلى إثرها القراءات القادمة والمأمولة، وفي الأخير أختم بعبارة الراحل هشام شرابي في "الجمر والرماد": "الحلم إذا تحقق كالرغبة إذا أشبعت يترك وراءه فراغا موحشا" (شرابي، 2003، 14).

قائمة المراجع:

أ- المراجع باللغة العربية:

1- الفاخوري، حنا، (ب س ط)، منتخبات الأدب العربي، ب ط، بيروت: المكتبة البوليسية.

2- الخولي، سناء، (ب س ط)، الأسرة والحياة العائلية، ط1، بيروت: دار النهضة العربية.

3- أركون، محمد، (1996)، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، ط2، بيروت: مركز الإنماء القومي الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

4- بوبريك، رحال، (2010)، بركة النساء الدين بصيغة المؤنث، ب ط، الدار البيضاء: افريقيا الشرق.

5- حرب، علي، (2005)، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

6- شرابي، هشام، (2003)، الجمر والرماد ذكريات مثقف عربي، الطبعة الجزائرية، الجزائر: منشورات الاختلاف.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

1- Bachmann, Ingeborg, (2006), *Trois sentiers vers le lac*, Paris: Actes sud.

2- Chaouati, Amel, (2013), *les Algériennes du château d'Amboise, La suite de l'emir Abd el-Kader*, Paris: La Cheminante.

3- Cocteau, Jean, (1923), *Thomas. l'imposteur*, Paris: Gallimard.

4- Foucault, Michel, (1969), *L'archéologie du savoir*, Paris: Gallimard.

5- Perrot, Michelle, (1998), *Les femmes ou les silences de l'histoire*, Paris: Flammarion.

6- Taraud, Christian, (2011), *Colonisation*, Paris: Clio 1, n33.

ج- المواقع الإلكترونية:

1- موقع المدى للإعلام والثقافة، تصفح يوم: 2015/11/01 على الساعة 11,15.

http://www.almadasupplements.net/news.php?action=view&id=683